(مستودعاً) لهذه الأقوال.

واستفادَ مِن التفاسير التي سبقتْه، والتي اعتمدَت الاتجاه الأثريَّ في التفسير، كتفسير مجاهد، وتفسير السدي الكبير، وتفسير قتادة، وتفسير سفيان الثوري، وغيرهم.

الثالث: تقديمُ استنباطاتِه واجتهاداته وتأويلاتِه، حيث كان الطبريُّ يتدبَّرُ الآيات، ويمعنُ النظر فيها، ويستخرجُ منها بعضَ ما توحي له به من معانٍ ودلالات.

ونلاحظُ أنّ هذه الخطوةَ الثالثة منه تأتي في ترتيبها المناسب، حيثُ كانَ يسبقها تفسيرُهُ اللغوي، وتفسيرُه الأثريّ.

وهذا يتفقُ مع ما سبقَ أنْ قلناهُ من التفريقِ بين التفسيرِ والتأويل، حيث جعلنا التأويلَ مرحلةً ثانية، مبنيةً على التفسير الذي يجبُ أن يكونَ أولاً.

هذه الأسسُ الثلاثةُ: (اللغة، والأثر، والاستنباط) هي التي أصَّلَ بها الإمام الطبريُّ دعائمَ منهجه الأصيل الفريد: (المنهج الجامع في التفسير).

وبذلك كان الإمامُ الطبري هو رائد المنهجِ الجامع في التفسير، وبهذا استقرّت القواعدُ الأساسيةُ في التفسير، لتبقى معلماً بارزاً، لكلِّ مَنْ أراد أنْ يحققَ المنهجَ الجامع في التفسير: اللغة، والأثر، والاستنباط.

المرحلة الثالثة ـ التفسير في طور التفريع:

انتقلَ المفسرون بعد الطبري بالتفسير إلى خطوة ومرحلةٍ أُخرى، وهي الانطلاقُ من التأصيل إلى التفريعِ والتنويع.

صارَ المفسرون يتوسَّعون ويستطردون في تفاسيرهم، ويوردون الكثيرَ من المسائلِ والمباحثِ والقضايا، وبعضُها لا يتصلُ بالتفسيرِ اتصالاً وثيقاً، وبهذا انتقل المفسرون بالتفسير من (التأصيل المنهجي) إلى (التفريعِ التثقيفي)!

وبينما كان الطبريُّ يفسِّرُ القرآن على أساسِ (المنهج الجامع)، القائمِ على

اللغة والأثرِ والاستنباط، كان المفسِّرون اللاحقون يفسِّرونه على أساسِ (المنهج الغالب) في التفسير.

لقد كان كلُّ واحدٍ من هؤلاء المفسرين يفسِّر القرآنَ وفقَ العلم الذي مَهَرَ فيه وغلب عليه، فالمتخصصُ في اللغة غلبَ على تفسيره مباحثُ اللغة والبيان، على حسابِ باقي المباحث التفسيرية، والمتخصصُ في الفقه والأحكام غلبَ هذا اللونُ على تفسيرِه، والمتخصصُ في المأثورِ والروايات غلب هذا اللونُ على تفسيره، والمتخصصُ في المباحث العقلية والكلامية غلبتْ هذه المباحثُ على تفسيره، وهكذا.

وبذلك تحوَّلَ التفسيرُ من (المنهجِ الجامع) إلى (المنهج الغالب)، وبذلكَ انتقلَ التفسير من طورِ التأصيل إلى طور التفريع.

قال الدكتورُ محمد حسين الذهبي وهو (يَرْصُدُ) هذه المرحلةَ التفريعية للتفسير: «وإنَّا لنلحظُ في وضوحٍ وجلاء: أنَّ كلَّ مَنْ برعَ في فَنٍّ من فنون العلم، يكادُ يقتصرُ تفسيرُه على الفَنِّ الذي برعَ فيه:

فالنحويُّ: تراهُ لا هَمَّ له إلاَّ الإعراب، وذكْرُ ما يُحتملُ في ذلك من أوجه، وتراهُ ينقلُ فروعَ النحوِ وخلافياته، وذلك كالزَّجّاج، والواحدي في البسيط، وأبي حيان في البحر المحيط...

وصاحبُ العلوم العقلية: تَراهُ يَعني في تفسيره بأقوالِ الحكماء والفلاسفة، كما تراهُ يعني بذكْرِ شبههم والردِّ عليها، وذلك كالفخر الرازي في مفاتيح الغيب.

وصاحبُ الفقه: تَراهُ قد عنى بتقريرِ الأدلةِ للفروع الفقهية، والردِّ على مَنْ يخالفُ مذهبَه، وذلك كالجصّاص، والقرطبي...

وصاحبُ التاريخ: ليس له شغلٌ إلاَّ القصص، وذكْرُ أَخبارِ مَنْ سلف، ما صحَّ منها وما لا يصح، وذلك كالثعلبي والخازن.

وصاحبُ البدع: ليس له قصْدٌ إلاَّ أنْ يُؤَوِّلَ كلامَ الله، ويُنزلَه على مذهبه الفاسد، وذلك كالرّمّاني، والجبائي، والقاضي عبد الجبار، والزمخشري،

وهؤلاء من المعتزلة، وملاَّ محسن الكاشي من الإمامية الإثني عشرية...

وأصحابُ التصوّف: قصدوا إلى ناحيةِ الترغيب والترهيب، واستخراجِ المعاني الإشارية من الآياتِ القرآنية، بما يتفقُ مع مشاربهم، ويتناسبُ مع رياضاتهم ومواجيدهم، ومِنْ هؤلاء ابنُ عربي وأبو عبد الرحمن السلمي...

وهكذا فسَّرَ كلُّ صاحبِ فنٍّ أو مذهبٍ بما يتناسبُ مع فنِّه أو يشهدُ لمذهبه»[1].

وقد استمرّتْ هذه المرحلةُ قروناً عديدة، من القرنِ الرابعِ حتى نهاية القرن الثالث عشر.

وظهرتْ في هذه المرحلة عدةُ اتجاهاتٍ للتفسير المفرَّعِ، على أساسِ المنهج الغالب، من أشهرها:

١ ـ التفسير بالمأثور: كان يغلبُ على تفاسيرِ مفسري هذا الاتجاهِ التفسيريِّ إيرادُ الأقوالِ المأثورة في تفسير الآيات، من أحاديثَ نبوية، أو أقوالٍ للصحابة أو التابعين، أو مَنْ بعدَهم من أئمة المفسّرين.

ومن أشهرِ التفاسير المطبوعة التي تمثّل هذا الاتجاه: (بحر العلوم) لأبي الليث السمرقندي، و(الكشف والبيان) لأبي إسحاق الثعلبي، و(الدر المنثور في التفسير بالمأثور) لجلال الدين السيوطي، و(فتح القدير) للشوكاني.

٢ ـ التفسير البياني: كان يغلبُ على تفاسيرِ مفسري هذا الاتجاه التحليلاتُ اللغويةُ والبلاغيةُ والبيانية، وكان أصحابُها يتوسَّعون في هذه المباحث البيانية، ويستطردونَ في المناقشاتِ والترجيحاتِ حولها.

ومن أشهرِ التفاسيرِ المطبوعة التي تمثلُ هذا الاتجاه: (الكشاف) للزمخشري، و(البحر المحيط) لأبي حيان الأندلسي، و(الدر المصون في علوم الكتاب المكنون) للسمين الحلبي.

---

(١) التفسير والمفسرون للذهبي: ١/ ١٤٧ ـ ١٤٨.

٣ ـ التفسير العقلي: كان يغلبُ على تفاسيرِ مفسري هذا الاتجاه المباحثُ العقلية، والمسائلُ الكلامية، والاستنباطاتُ والدلالات الناتجة عن إعمالِ الرأي وإنفاذِ النظر، وكان مفسرو هذا الاتجاه يُفَرِّعون ويُنَوِّعون ويستطردون ويتوسَّعون في هذا الميدان العقلي، على حسابِ الميادين الأخرى.

ومن أشهرِ التفاسير المطبوعة التي تمثّل هذا الاتجاه: (مفاتيح الغيب) ـ أو: التفسير الكبير ـ لفخر الدين الرازي، و(غرائب القرآن ورغائب الفرقان) للقمي النيسابوري، و(أنوار التنزيل وأسرار التأويل) للبيضاوي، و(مدارك التنزيل وحقائق التأويل) للنسفي، و(لباب التأويل في معاني التنزيل) للخازن، و(إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم) لأبي السعود العمادي، و(روح المعاني) للآلوسي.

٤ ـ التفسير الفقهي: كان يغلبُ على تفاسير مفسّري هذا الاتجاه المباحثُ الفقهية، والمسائلُ المتعلقة بالأحكام والتشريعات، حيث كان المفسرون يقفونَ طويلاً أمامَ الآياتِ التي تتضمن أحكاماً وتشريعاتٍ، ويستنبطون منها الأحكامَ والتشريعاتِ التي توحي بها، وكان كلُّ مفسّرٍ ينتصرُ لاختيارات وترجيحات مذهبه الفقهي.

ومن أشهرِ التفاسير المطبوعة التي تمثّل هذا الاتجاه الفقهي: (أحكام القرآن) للجصّاص الحنفي، و(أحكام القرآن) لِلْكِيَاالهَرَّاسي الشافعي، و(أحكام القرآن) لأبي بكر بن العربي المالكي.

٥ ـ التفسيرُ القريبُ من المنهج الجامع: كان مفسِّرو هذا الاتجاه قريبين من المنهجِ الجامع الأصيل، الذي أرسى معالمَه الإمامُ الطبري، وكان هؤلاء المفسرون يقتدون بالإمامِ الطبري، ويحاولون أنْ يقتربوا منه.

فظهرتْ في تفاسيرهم الأسسُ الثلاثةُ للمنهج الجامع، وهي: اللغة، والأثر، والاستنباط، على تفاوتٍ بينهم في تحقيقِ هذه الأسس الثلاثة، وكانوا في هذا (دونَ) مستوى الإمام الطبري، لكنهم استفادوا من ذلك المنهج الرائد.

ومن أشهرِ التفاسيرِ المطبوعة التي كانت قريبةً من المنهج الجامع، والتي سارَ أصحابُها على طريقِ الإمام الطبري: (التفسير الوسيط) للواحدي النيسابوري، و(المحرر الوجيز في تفسير القرآن العزيز) لابن عطية الأندلسي، و(الجامع لأحكام القرآن) للقرطبي الأندلسي، و(تفسير القرآن العظيم) لابن كثير الدمشقي.

المرحلة الرابعة ـ التفسير في طور التجديد:

بقي المفسرونَ منذُ القرنِ الرابع حتى القرنِ الرابع عشر يُفَرِّعون ويُنَوِّعون في تفاسيرهم، كلٌّ حسب الاتجاهِ الذي مَهَرَ فيه، والعلمِ الذي غلبَ عليه، حتى جاءَ العصرُ الحديث.

ويبدأُ العصرُ الحديثُ من بدايةِ القرنِ العشرين الميلادي، أو القرن الرابع عشر الهجري.

وتميَّزَ التفسيرُ في العصر الحديث بمزية (التجديد)، ولهذا أطلقْنا على هذه المرحلة اسم (التجديد).

ونَعني بالتجديد في التفسير: التجديدَ الصحيحَ السليم، المنضبطَ بالضوابطِ العلمية، الملتزمَ بالأسسِ المنهجية، التجديدَ القائم على الإبداعِ والتحسين والجدَّة، والاستفادةِ من العلوم والمعارف والثقافات المعاصرة، وتوسيعِ أبعادِ معاني الآيات القرآنية، وإحسانِ تنزيلها على الواقع الذي تعيشُه الأمة، والعملِ على حلِّ مشكلات الأمة على هدي حقائق القرآن الكريم.

ولا نعني بالتجديدِ الخروجَ على القواعدِ والضوابطِ والأسسِ العلمية المنهجية، والانفلاتَ والفوضى، والقولَ في القرآن بدون علم، وتحريفَ معاني الآيات ودلالاتها، لتوافقَ أهواءَ هؤلاء، وتتفقَ مع مقرراتِ الغربيين أو الشرقيين، المخالفةِ لكتابِ الله!!

بدأتْ مرحلةُ التجديدِ في العصر الحديث بالشيخِ محمد عبده، الذي أرسى

معالمَ مدرسةٍ خاصةٍ في التفسير وفهم القرآن، وله فيها تلاميذٌ وأتباعٌ يوافقونه ويقتدون به، ومعالمُ منهجِ هذه المدرسة منها ما هو صحيحٌ طيبٌ مقبول، ومنها ما هو مردودٌ مرفوض، وقد أصابَ مفسِّرو مدرسة محمد عبده كثيراً في تفاسيرهم، كما أنهم أخطؤوا في مواضعَ عديدة فيها، ومن تلك الأخطاء ما كان أساسياً جذرياً خطيراً!!.

ولكن من المسلَّمِ به أنَّ محمد عبده وتلاميذَه أحدثوا هزةً وتجديداً في فهمِ القرآن وتفسيره، غَيَّروا بها النظرةَ التقليدية الرتيبة التي طغَتْ على قرونٍ عديدة سابقة!

وفي مقدمة رجال محمد عبده الذين قدموا جهوداً طيبة في تفسير القرآن الشيخ محمد رشيد رضا، صاحب (تفسير القرآن الحكيم) المشهور باسم (تفسير المنار)، ولكنه توفي رحمه اللهُ قبل إكماله.

ومن أهم مظاهر التجديد الإيجابي للتفسير في العصر الحديث إنشاء (العملِ الحركيِّ الدعوي الإسلامي)، المتمثل في (جماعة الإخوان المسلمين) التي أسسها الإمام حسن البنا، والتي انتشرتْ في مختلف بقاع العالم العربي والإسلامي، والتي برزَ فيها دعاةٌ وعلماء كبار خدموا القرآن والإسلام والدعوة، وتركوا آثاراً ملحوظة في فهم القرآن والإسلام.

من العلماءِ الذين أصدروا دراساتٍ قرآنيةً نافعةً، وكانوا من المنتمين لحركة الإخوان المسلمين: البهي الخولي، ومحمد الغزالي، وسعيد حوى صاحب (الأساس في التفسير)، وعبد المتعال الجبري، والدكتور عدنان زرزور، والدكتور أحمد فرحات، والدكتور محمد الصباغ.

وفي مقدمةِ هؤلاءِ العلماء والمفكرين سيد قطب، الذي انتقل بالتفسير نقلةً بعيدة فريدة، عندما كتب تفسيرَه الرائد (في ظلال القرآن)، الذي اعتبره الدارسون والباحثون مَعْلَماً بارزاً هادياً في عالمِ فهمِ القرآن وتفسيره والحركة به، على مدار التاريخ الإسلامي.

ومن أشهرِ التفاسير المعاصرة: (محاسن التأويل) لجمال الدين القاسمي، و(تفسير القرآن الحكيم) ـ تفسير المنار ـ لمحمد رشيد رضا، و(في ظلال القرآن) لسيد قطب، و(أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن) لمحمد الأمين الشنقيطي، و(الأساس في التفسير) لسعيد حوى، و(التحرير والتنوير) لمحمد الطاهر بن عاشور، و(التفسير الموضوعي للقرآن الكريم) لمحمد الغزالي، و(تفهيم القرآن) لأبي الأعلى المودودي، و(التفسير الحديث) لمحمد عزة دروزة، و(التفسير المنير) للدكتور وهبة الزحيلي.

وأهمُّ التفاسير المعاصرة: تفسير المنار، لكنه لم يكتمل، وتفسير (التحرير والتنوير) لابن عاشور، و(في ظلال القرآن) لسيد قطب.

هذا استعراضٌ موجزٌ لحركةِ التفسير في مسيرتها التاريخية، منذ عهدِ الصحابة حتى العصر الحاضر، وهذه هي المراحلُ الأساسيةُ الأربعةُ التي مرّت بها.

وفي ختام الحديث عن هذه المسيرة التاريخية نشيرُ إلى أهمِّ كتب التفسير، التي لا يستغني عنها دارسٌ للتفسير، راغبٌ في فهم القرآن:

١ ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للإمام الطبري.

٢ ـ الكشاف عن غوامض حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للإمام الزمخشري.

٣ ـ مفاتيح الغيب ـ أو التفسير الكبير ـ للإمام الرازي.

٤ ـ تفسير القرآن العظيم، للإمام ابن كثير.

٥ ـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي.

٦ ـ تحرير المعنى المفيد وتنوير العقل الجديد في تفسير القرآن المجيد ـ التحرير والتنوير ـ لمحمد الطاهر بن عاشور.

٧ ـ في ظلال القرآن، لسيد قطب.

* * *